أصول الخرافات والعادات الشائعة

للأستاذ مبارك ابراهيم
سكرتير عام مصلحة التلغرافات والتليفونات

من أراد معرفة الخرافة وكيف نشأت فإنه واجد بغيته فى المحاولة الأولى للانسان الأول عند ما أراد أن يفسر لنفسه ظواهر المشاهد الطبيعية التى حوله وأن يتعرف الى ذات نفسه.

وتفسر نشأة الخرافة أيضا فى رغبة الانسان فى استعطاف القدر وفى استجلاب الحظ وكذلك فى الرغبة فى تجنب ما يخافه — ولايعرف كنهه — من رزايا ومحن وكذلك فى محاولة معرفة ما تخفيه سماء المستقبل من كواكب السعد والنحس .

من هذه المصادر تفجرت الينابيع الأولى للأحاسيس والطقوس التى مازالت موجودة بين الشعوب الهمجية . .

وإنه وان لوحظ بين الشعوب المتمدنة أن الخرافة بطبيعتها الوضعة قد حلت مكانها الأسطورة الجذابة المصقولة فان القوة المحركة مازالت هى هى .

وإن تفسير الانسان للعالم كان دائما وفق قدرته على تفهم أسرار هذا العالم ولا أقل من هذا ولا أكثر .

ولهذا السبب فان الخرافات التى ظفرت بالبقاء — منذ النشأة الأولى للخرافات — يمكن أن تفيدنا فائدة كبرى بحسبانها عادة متأصلة من العادات السيكولوجية التى لها أهميتها .

وأولى أغنيات الخرافات جميعا هى الجهل واليك ثلاثة أمثلة توضح هذا على ما بينها من اختلاف واسع المدى :

أما الأول — فرجل من الصين كان على ظهر هذه الأرض ألف سنة قبل ميلاد المسيح وكان أمامه كتاب " التغييرات " وهو يحاول استكناه المستقبل بواسطة الرسوم الهندسية .

وأما الثانى — فسيدة رومانية كان الهدف السابق هدفا لها ولكنها كانت تستعمل لبلوغ غرضها الأشكال التى يشكلها الشمع الذائب فى الماء .

وأما الثالث — فكان أحد المخاطرين فى سوق الأسهم والمضاربين فى أسعار البيع والشراء وهو يجلس الى عراف يقرأ الحظ فى المرايا وفى ورق اللعب لينبئه عما يخبئه له القدر من ربح أوخسارة فى صفقة هو مقبل على شرائها .

فالدافع الأول فى هذه الحالات الثلاث هو الرغبة فى معرفة المستقبل ومادام الإنسان هو الانسان فسوف يظل يعتمد على الكهانة والعرافة التى كان يعتمد عليها أسلافه حتى يستكشف كهانة وعرافة جديدتين تتفقان وما وصل اليه من تقدم فى العلوم العقلية .

والجهل أنواع وشكول ومن أنواعه مايسير جنبا الى جنب مع زماننا الحاضر فما لانزال نجد من التعاليم ما بنى على تفسير خاطئ للحقائق .

ومن أقوال ترنشارد فى كتابه " التاريخ الطبيعى للخرافات " أن ما يتطلع اليه الانسان يفوق بكثير مدى قدرته على تفسير ظواهر الطبيعة والحياة .

ولهذا ركب الإنسان البدائى روحا حية لكل شيء مبتدئا ببنى جنسه ومنتهيا بالحيوانات الدنيا وبالأشجار والجبال والأنهار .

ويحتمل أن تكون هذه النتائج التى وصل اليها صالحة بنسبة ما هيأه له ذكاؤه .

ولكن هذه النتائج كونت رأس مال لكل جنس من أجناس البشر فانحدرت من جيل الى جيل مكونة حواجز تبدو الرغبة فى تخطيها كل ماجدت وانتشرت فى الحياة آراء جديدة.

ولا يزال الجدل قائما على الخرافات الشائعة فى زماننا الحاضر .

فالسيدة التى تأبى أن تؤدى زيارة من الزيارات إلا إذا لبست تعويذة أوحجابا والرجل الذى يترك المائدة ممتقع اللون وقد بلغ منه الفزع مبلغه لأن الجالسين على المائدة كانوا ثلاثة عشر .

أقول إن تلك السيده وهذا السيد هما — الى حد ما — ضحيتان من ضحايا الجهل حكمهما فى ذلك حكم ذلك الروحانى الذى يحاول سل الضعينة والغضب من الروح التى تهيمن على مجرى النهر.

فالجهل والجهل وحده هو الجو الذى تتنفس فيه مثل هاتيك الخرافات .

والأغنية الثانية من أغنيات الخرافات هى الخوف فهو العنصر التالى لعنصر الجهل .

والخوف كذلك أنواع ومنها ما هو طبيعى وله ما يبرره . فانى اذا زرت محطة من محطات القوة الكهربائية وأنا لا أعرف شيئا عن تركيب آلاتها وأسرار أجهزتها فلا جرم أن وجدتنى خائفا متحرزا حتى لا أخطئ خطأ فيه من الخطر ما فيه . فالخوف المعقول إذن هو الذى تبعثه المعرفة المعقولة .

انما يبعث الخرافة من مرقدها الخوف غير المعقول .

ومن سوء حظ الانسان الأول أن قد مرت عليه تجارب هى فوق طاقة ادراكه من حيث كثرتها ودقتها . وكانت هذه التجارب فوق مستوى قدرة التحليل عنده .

فحدوث الصواعق ظاهرة من الظواهر الطبيعية التى تبعث الخوف الا فى قلوب الذين لا يعرفون الى الخوف سبيلا .

فلا عجب اذن اذا خلق الناس من أوهامهم نسيجا حول الأرواح التى تسكن العوالم السفلى ولا عجب اذن أن يملأوا الكهوف والغيران بالأفاعى والحيات وبكل عدو مخيف من اعداء الجنس البشرى .

فالرعود والبروق والعواصف والآفات التى تأتى على حاصلات الأرض وكذلك المرض الغريب المفاجئ الى مئات أخرى من المصائب لم تكن فى نظر الانسان ظواهر تعمل عملها المقدر لها انما هى قوى يجب أن تسترضى .

أما الأغنية الثالثة من أغانى الخرافات فهى محاولة استرضاء مايعقل ومالا يعقل بمايوائمها من طقوس واعتقادات وما يلائمها من مراسم الحفاوة ومن مظاهر التوبة والندم .

فإذا تضافر الجهل والخوف وانتجا شعورا بالخطر تكفلت المعرفة — حتى ان كانت معرفة ناقصة — بخلق طريق النجاة من ذلك الخطر .

واذا كان ما أسلفنا هى الأصول الأولى للخرافات فما هى الأصول الثانوية .

واذا كان الايمان بوجود عالم قريب منا ملىء بالأرواح وبالخوف منها هو الحل الوحيد الذى عرف لتعليل وجود الديانات الغريبة والعادات والخرافات فى الحياة الوثنية فما هى الأسباب الأخرى التى عدلت هذه الفروض الأولية فى لغز الوجود ؟

وللجواب شقان — الأول أن الأسباب القديمة لم يبطل عملها مطلقا وان كانت طريقة التعبير قد نالها التغيير . والثانى أن الأسباب الجديدة هى ظهور الديانات العالمية والتغيرات الاجتماعية والعزلة السياسية .

ولكى نصور الأسباب القديمة مطبقة تطبيقا حديثا فاننا سنتكلم عن الجهل مرة أخرى .

حدث أن عائلة واحدة فقدت ستة من أطفالها وكان موتهم فى فترات قريبة متعاقبة أثر مرض غريب مفاجئ فكانت أقدامهم تصاب بتسوس فى العظام ثم تتآكل . وعلل الموت أحد كبار العلماء الأطباء بأنه كان نتيجة لتسمم الأطفال بطعام فاسد سببه آفة فى القمح الذى منه يأكلون .

ولكن هذا الطبيب العالم قرر فى رسالته أن الاعتقاد الشائع والثابت ثبوت اليقين عند أهالى القرية التى هلك أطفالها هو أنهم كانوا ضحية من ضحايا السحر الأسود وكان هذا الحادث فى سنة ١٨٧٠ أو ما حولها وفى انجلترا المسيحية . فاذا تأخر بنا الزمن أربعمائة عام أو اضعاف هذا الزمن فاننا نجد أمثال هذا التعليل اذ أن الجهل هو هو فى كل العصور ولكن الأسباب التى نسميها ثانوية تفتح لنا ميدانا جديدا للبحث والتحقيق .

وانظر الى ظهور الديانة المسيحية وما فيها من وجهات النظر التى تخالف الديانات التى كانت سائدة يوم ظهورها كل المخالفة . وانظر ماذا كان تأثرها بعبادة الأوثان . فقد لوحظ أن هناك خرافات وطقوسا من تلك الخرافات والطقوس القديمة قد تنصرت ولبست لباس المسيحية وأن هناك خرافات وطقوسا جديدة قد نبتت ونشأت .

وليس هناك حقيقة واضحة كل الوضوح لمن أراد أن يتقصى أصول هذه الخرافات .

وقد كان السير اسحق نيوتن على حق عندما قال فى كتابه عن "النبوات" أن الوثنيين كانت تتولاهم الغبطة وتملكهم نشوة السرور عند ماتحل أعياد آلهتهم ولم يكن هينا عندهم أن يتخلوا عن إقامة تلك المهرجانات .

ولتيسير سبيل اعتناقهم المسيحية وتحولهم عن الوثنية فقد لجأ جريجورى أسقف قيصريه الجديدة إلى إنشاء أعياد سنوية للقديسين والشهداء من المسيحيين .

ومن هنا نشأت فكرة شجرة عيد الميلاد وإقامة الولائم والألعاب يوم عيد ميلاد المسيح لتحل تلك المباهج محل أعياد الخمر وأعياد إشباع الشهوات التى كانت تقام فى الأزمان الوثنية .

وكذلك الاحتفال بعيد أول مايو فإنه قد حل محل عيد الأزهار القديم .

وكذلك أيضا الاحتفال بأعياد السيدة العذراء ويوحنا المعمدان وسائر الرسل فقد حل الاحتفال بهم محل الاحتفال بدخول الشمس منطقة البروج حسب التقويم الجولياني .

ونرى من جهة أخرى أن حوادث ظهور المسيحية وميلاد السيد المسيح وحياته وموته كانت كلها مصدرا جديدا لخرافات جديدة .

وإليك مثال نقدمه فى الوهم الشائع أن من يجلس إلى مائدة أحد المسيحيين فان حظه يكون سيئا . ومبعث هذا الوهم مستمد من حادث "العشاء الأخير" .

وقد جاء الاصلاح البرتستنتى (فى القرن السادس عشر) بقوة عارمة دافعة ليقضى على كل أثر للخرافات القديمة .

ولكن الذى يبدو من بقاء كثير من الخرافات التى قاومت الغناء وتلك التى بعثت من قبرها أن كل نجاح حنابلة المسيحية تتمثل فى التحامل على طقوس الكنيسة الكاثوليكية ، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية دائما نبعا فياضا للخرافة فانه لما أعلن الكاردينال نيومان (جون هنرى نيومان المولود عام ١٨٠١ والمتوفى عام ١٨٩٠) أنه يعتقد فى القول القائل أن كل أخشاب كنائس القارة الأوروبية هى جزء من الصليب الذى صلب عليه المسيح (ولو أن مقدار الخشب اللازم لهذا العمل يكفى لتخشيب مدرعة حربية) وأن هذا يمكن أن يعلل بأنه من المحتمل أن يتضاعف خشب الصليب بمعجزة ربانيه كما ضوعفت الأرغفة والسمكات .

وهناك أيضا ماقيل عن شجر الحور الرجراج وما قيل من أن السيد المسيح قد صلب على خشب من شجر الحور وأنه منذ أن صلب المسيح فإن أغصان أشجار الحور تهتز إلى يومنا هذا من الرعب والفزع .

ومن سوء حظ هذه الخرافة ومما يجعلها مستحيلة الاحتمال أن اهتزاز شجر الحور فى الهواء لايرجع لسبب خارق للطبيعة ، فإن تركيب أوراق هذا الشجر يساعد على الاهتزاز والحركة إذ أن أوراقها عريضة وسوقها طويلة دقيقة وفيها قابلية للانثناء حتى لايمكنها البقاء فى وضع عمودى قائم ، فضلا عن أن الجزء الأعلى للساق وهو الذى عليه تعتمد الأوراق يخالف طبيعة سوق سائر الأشجار ، ذلك بأنه منبسط تماما وهو على زاوية قائمة بالنسبة لأوراق الشجرة مما يجعله يتأثر لكل هبة من كل ريح تهب . وإن الآية القائلة إن الأشياء كلها تسبح لك "وإن من شىء إلا يسبح بحمده" قد أخذت بمعناها الحرفى ، والمسئول عن شيوع كثير من الخرافات هو ذلك الاستعداد لإيجاد لمحة من لمحات الدين فى كل شىء فى هذا العالم .

والآن قد وصلنا إلى العقدة العسير حلها وهى : كيف نعلل بقاء بعض خرافات الماضى إلى زماننا هذا . وكيف نعلل — ونحن فى زمن الدراية والمعرفة اللتين يتقدمان دائما بخطى واسعة — بقاء بعض مخاوفنا وهى الذرية الصالحة للجهل كما قدمنا .

نحن نفهم بقاء عادة من العادات حتى تلك العادات التى عفى الزمن على دلالتها ، أما بقاء خرافة تسعى فى الأرض فهذا شىء مختلف جدا .

وهناك سبب يجب تلمسه فى تلك الحقيقة الواقعة وهى أن الخرافة تعدى وقد أوضح ذلك المفكر الانجليزى (والتر باجهوت) فى كتابه "الطبيعيات والمسائل السياسية" حيث يقول :

فى كتاب "من الشرق" وصف بليغ يبين كيف أن كل أوروبى من المقيمين فى الشرق حتى التاجر الذكى وحتى ضابط البحرية بعينه الصافية اليقظة يمسى ويصبح فاذا به من المؤمنين بالسحر والسحرة ويؤكد لك تأكيد الواثق أن هناك شيئا ما فى سحر الساحرين . وهو مع أنه لم ير شيئا يقنعه فقد رأى أولئك الذين رأوا أولئك الذين رأوا أولئك الذين رأوا .

والشىء الذى لامرية فيه أنه قد عاش فى جو ملأته عدوى الاعتقاد بالسحر والسحرة وأنه تنفس فى هذا الجو فامتلأت بآثار العدوى خياشيمه .

وشيوع خرافة بعينها فى كل قطر من أقطار العالم على اختلاف فى الشكل شهادة ناطقة على قوة تغلغل عدوى الخوف .

ومن الأسباب الأخرى لتأصل الخرافات أن هناك عقلا يتأثر بالخرافات وهذا العقل مستقل تمام الاستقلال عن العقل المتأثر بالثقافة والتعليم . والمثال قائم فى الدكتور جونسون ذلك الأديب الكبير الذى كان يعتقد أن حادثا سيئا سوف يحدث إذا فاته أن يلمس كل عمود من أعمدة النور فى الشارع أو فى الطريق ولابد أن تكون هذه الفكرة قد تكونت عنده وأصبح لها سلطان على عقله لايمكن انتزاعه .

وهناك مثال آخر نجده فى شخص روكفلر الذى قيل إنه كان أغنى رجل فى العالم وكان مع رجاحة عقله واقعا تحت تأثير خرافة لطيفة وهى انه ظل سنين عديدة يحمل فى جيبه حجرا من النوع الذى يسمى "حجر النسر" وهو نوع من الأحجار أجوف وفى تجاويفه بعض ذرات متحجرة يسمع لها جاجلة وصليل كلما اهتز الحجر .

وهذا الحجر أسمر الصبغة ويحمله النسر فى كثير من الأحيان إلى وكره وهـذا الحجر يتخذ تعويذة لاتقاء المصائب والبلايا .

ويقال إنه اذا أدخل شريط من القماش فى ثقب تجاويف هذا الحجر أصبح لهذا الشريط ما للحجر نفسه من منافع ومزايا فكان روكفلر الفطن الذكى إذا أراد أن يسدى ميلا لأحد خاصته تفضل فأعطاه قطعة صغيرة من هذا الشريط الواقى من المصائب والبلايا .

وبعد ، فإن السبب الرئيسى لبقاء الخرافات هو أنها — الى حد ما — تتصل بمسائل وقضايا لاتزال معرفتنا بها قليلة .

وحتى يزول أو يقل جهلنا بتلك القضايا فسوف تظل عملاء دائمين للعرافين والمتكهنين برغم نشاط رجال الشرطة وحفاظ الأمن .

أما ما يسمونه القوات الخفية الغامضة وبخاصة ما يسمى السحر الأسود فان النـاس من أمره فى ظلام دامس ، ذلك بأن القادرين على تنوير الأذهان فى مثل هذه المواضيع لا يحاولون محو هذه الخرافات إلا بالتقليل من شأنها ، وهذا ما يؤسف له حقا .

ومن يقرأ قصص الرحالة الذين جابوا الشرق وهم ممن لا يتهمون بعدم التقصى أو بالميل مع الهوى يجد عجبا ليس وراءه عجب ، فهم يحدثوننا عن قوات خفية فى الشرق لست تجد منها بديلا فى الغرب .

وبعد ، فإننا اذا أعدنا النظر فيما قدمنا دون أن نميل مع الهوى فقد يتبين لنا أن الاتجاه العقلى الصحيح حيال الخرافات التى مازالت باقية يجب ألا تكون وجهتـه الانكار وعدم المبالاة ، بل يجب أن تكون وجهته البحث والتقصى ، فان ما يفيده علم النفس من هذا المجهود كبير الجدوى عظيم الفائدة .

وكما أن علم الفلك هو وليد علم التنجيم ، وكما أن الكيمياء الحديثة هى وليدة كيميـاء تحويل المعادن الى ذهب فلعلنا من مسائل الأسرار الغامضة نصل يوما ما الى التقدم فى العلوم النفسية ، وهى العلوم التى لا شك فى فائدتها لخدمة الجنس البشرى .

(نقلا عن الانجليزية من كتاب "أصول الخرافات والعادات الشائعة" لشارل برتولسون)

مبـارك ابراهيم

مكتوب عام مصلحة التلغرافات والتليفونات